

وقد وضع الامام اصبعه على آفة من آفات الجماهير وطبيعة من أخص طبائعهم، وهي سرعة التقلب، وقد وضحاها "شكسبير" أبلغ توضيح في رواية "يوليوس قيصر".
وقد أمر رضى الله عنه باحترام التقاليد الشعبية، والعادات الاجتماعية، فكان حكيما بعيد النظر في سياسة الجماعات، وما زلنا نرى ساسة الأمم يفشلون حين يتجاهلون للشعوب تقاليدها، وللجاعات عرفها، قال الامام:

"ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة، واجتمعت بها الألفة وصلحت بها الرعية".
وإذا أردت وصفاً دقيقاً يصدق الحكمة القائلة "التاريخ يعيد نفسه" فاستمع إليه وهو يصف مجتمعه بأوصاف كأنهم يعيشون بيننا ويتنقلون بين أظهرنا، فيقول: "واعلموا - رحمكم الله - أنكم في زمان القبائل فيه بالحق قليل، واللسان عن الصدق قليل، واللازم للحق ذليل، أهله معتكفون على العصيان، مصطلحون على الادهان، فتاهم عارم - شرس - وشائبهم آثم، وعالمهم منافق، وقارئهم مما ذق - غاش مخادع - لا يعظم صغيرهم كبيرهم، ولا يعول غنيهم فقيرهم".
وكان دستور رضى الله عنه في تحصيل الضرائب، الرفق بالأهلين، وعدم بيع شيء ضروري، وهذا ما تفعله قوانيننا الحديثة، من منع الحجز على الملابس، ومرتبات الموظفين، وكل ما يقوم به الأود، فيقول: "ولا تبيعن للناس في الخراج كسوة شتاه ولا صيف ولا دابة يعتمدون عليها، فإن شكوا ثقلا - أي ثقل المضروب عليهم من مال الخراج - أو علة أو انقطاع شرب - أي ماء في بلاد تسقى بالانهار - أو بالآلة - أي ما يبل الأرض من ندى ومطر - أو أحالة أرض اغتمرها غرق - أي تحويلها البذر إلى فساد بالتعفن لما اغتمرها وعمها من الغرق - أو أجحف بها عطش، خفت عنهم بما ترجوان يصلح به أمرهم"، وهذا بعد نظر، وسياسة مالية حكيمة، تزيد وضوحا في قوله:

"تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله، فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن